(هٰكَذَا قَالَ: ثُجَرٍ بِضَمِّ ٱلثَّاءِ. وَٱلثَّجَرُ ٱلَّذِي قَدْ تَمَّ. قَالَ: (لَمْ) أَسْمَعْهُ إِلَّا هَا هُنَا وَٱلْمِضْرِسُ شَجَرٌ إِلَى ٱلسَّوَادِ. وَٱلْمَكْنَانُ مِنْ خَيْرِ ٱلنَّبْتِ. وَكَتَنْتَ لَزِجَتْ وَحَسُنَتْ جُحَافِلُهُ حَتَّى ٱسْتَبَانَ أَثَرُهُ فِيهَا) (سيأتي البقية)

في الروايات الخيالية

للاب اميدي لوريول اليسوعي

ان دخلت ايها القارئ اللبيب الى مخدع بعض الخواصّ ممّن عُرفوا بين القوم بالوجاهة ونفوذ الكلمة لعلّك تلمح بين اثاث الدار المنبئة على الثروة خزانةً نُضّدت فيها عدّة كتب برسم المطالعة. تلك هي مكتبة العائلة

فان سرّحت الطرف في هذه التآليف او تصفّحت على الاقلّ اسماءها ربّما لم تعثر على مصنّفات تاريخية او ادبيّة او علمية امّا الروايات الخيالية فقلّما ترى هذه الكتب خالية منها. ولعلّها في الغالب هي وحدها المجموعة فوق رفوفها. او اذا كانت كتب الروايات مختلطة بغيرها من التآليف فترى ما سواها حسن التجليد نظيف الورق كأنّها لم تمسّها بعدُ ايدي القرّاء. بخلاف الروايات فانك تراها يعلوها الدَّرَن ممزّقةً مخرّقة منتثرة الاوراق لتداول الايدي لها ولإقبال المطالعين عليها. فحسبك بذلك دليل على خطارة مسألة الروايات الخيالية

ويغلب على ظنّنا ان لهذه الطلب في الشرق اهمّيّة تختصّ به دون الغرب كما سنبيّن فللروايات عند اهله فعلٌ عجيب اذ تعمل هذه القصص المختلفة في قلوبهم عمل الراقي بسحره فتفتنها وتخلب سويداءها وربّما اصبحوا اشبه بالفَراش المتهافت على السراج فيحترق به او كالطير الذي يرى الحيّة فيلقي بنفسه في لهواتها

فهذا ما حدانا الى البحث في الروايات الغربيّة ليكون اهل بلادنا على بيّنة من امرهم ويأخذوا من مضارّها حذرهم

في اصل الروايات الخيالية وتاريخها

واوّل ما يجب هنا عنهُ البحث ما هو اصل الروايات الخيالية وتاريخها. الّا انّ في

تفصيل ذلك مجالاً رحباً لا يسعنا الخوض فيه وانما نجتزئ بذكر بعض فوائد تُطلع القرّاء على خلاصة الامر

انَّ الرواية كما يدلُّ عليه اسمها ليست في الاصل سوى واقعةٍ او حادثٍ يرويه القوم اي يتناقلونهُ بينهم سواء كان موضوعها صحيحاً صادقاً او مُختلَقاً. وربَّما أُطلق اسم الرواية على الاقاصيص الخرافية التي يبتكرها الكتبة لتفكيه المخيّلة وهو المراد في معرض كلامنا في هذه المقالة

والفرنج يدعون مثل هذه الروايات باسم الرومان (roman) نقلاً عن اللُّغة العامية القديمة المعروفة باللغة الرومانية (langue romane) لانَّ هذه القصص اكثر ما كانت تُروى في هذه اللهجة العامية فمنها ما كان تاريخياً واقعياً كرومان دي بون (roman de Bon) ومنها ما كان اختراعاً بحتاً كعدَّة اقاصيص تُعزى لشارلوس الكبير ملك فرنسة اسمها (romans de la Table-Ronde) ومنها ما كان على صفة رَمز او مثَل كرواية الوردة (le roman de la Rose) وقد اتى منها بعضها على طرز هجاء كرواية الثعلب (roman du Renard)

ومهما كان من امر اسم الرواية فانَّهُ لا يشكُّ احد في انَّ اصلها قديمٌ جدًّا والاحرى ان نقول انَّ الانسان منذ ظهوره على الارض لا يزال يطمح ببصره الى غرائب الاحوال وعجائب الامور فهو مطبوع على ذلك بالفطرة يأنس بمثل هذه الوقائع المبتكَرة ويصرف اليها خيالهُ ويخترعها ليسرَّ بها ابناء جلدته

وأقدم ما بلغ الينا من هذه الروايات تراهُ على هيئةٍ شعريَّة ومقيَّدة بالنظم كما يصدق ذلك في بقيَّة المصنفات العقلية العريقة في القِدَم فانَّها جميعاً محلاَّة بايقاع النظم لتتشنَّف بها الآذان وتنطبع في الذاكرة. امَّا ما كان مَنثورًا من هذه الروايات فلا يرتقي الى زمن قديم. وقد بيَّن المؤرّخون انَّ الروايات الحماسيَّة القديمة وما شاكلها ممَّا لا يعرف الآن الَّا نثرهُ كان في سالف الازمان مرويًّا بالشعر

وهذا امرٌ يصحُّ تبيانهُ في تاريخي الغرب والشرق معاً. فانَّ للهنود والصينيّين مجاميع ضخمة من الروايات الحماسية الخيالية وكلها بالشعر يبلغ بعضها ما ينيف على عشرين الف بيت من النظم. وكذا قل عن الفرس الاقدمين وعن العجم كما ترى في كتاب الملوك (شاه نامه) للفِرْدَوْسي. ولا نظنُّ ان العرب شذُّوا عن هذه القاعدة العمومية وفي نجعاتهم

ودواوينهم القديمة شاهدٌ على ذلك كما ترى في قصائد الهلهل وغيره

وكان لليونان كَلَف بالروايات الخيالية وليست قصائد اوميروس البليغة في أَشيل وغُوليس سوى صنفٍ من الحكايات الفنّية التي تستند الى بعض حوادث تاريخية . وكأنها بالشعر ايضاً . واوّل رواية خيالية وردت عندهم في النثر اذا استثنينا امثال ايزوب (ايمان) اسمها « في غرائب ما وراء تولة » مدارهُ على خبر اسفار عجيبة كاسفار السندباد البحري . وفي العصر التالي صنّف أريستيد الملطي الأقاصيص الملطية وهي حكايات غزلية منافية للآداب كَلِف بها معاصروهُ . وجاء بعدَهُ غيرهُ من الكتبة فسلكوا مسلكهُ في صقلّية وقد ذهب الدهر بكتبهم غير مأسوفٍ عليها الّا ان الكتّاب الرومانيين كارتينيوس ولوسيان وأكريلة نقلوا عنها في تآليفهم في آخر عهد الجمهورية الرومانية

امّا الرومانيون فلم يبرعوا بتصنيف الحكايات الخيالية ولا يُذكر لهم غير حكاية بسيخي (Psyche) وتآليف يترون وكلُّها موسوم بالخلاعة وسوء الآداب تنطق باسان حالها عمّا جُبل عليهِ اهل ذلك الزمان من القبائح والرذائل . وقد جاء بين كتبة عصرنا من مثالهم دعارةً وقبحاً وقانا الله من شرهم

هذا ولمّا صارت الدروس اليونانية الى انحطاط وتقهقُر نما فيها عدد كتبة الروايات التخيُّلية . فكتب ألسيفون وأرستينيت روايات على شكل المراسلات . وبين اعمال دُيون كاسيوس بعض من هذه التصانيف لا تخلو من دقّة وحسن تصوُّر . وتوفّرت بعدئذٍ كتُب الروايات حتّى شاعت في كل انحاء بلاد اليونان ولا حاجة لتعداد كلّ هذه التصانيف التي لا طائل كبير تحتها كروايات رادام وسيموفيس ولوسيب وغيرهم . ثمّ سكنت حركة هذه المؤلّفات مدّة ستة اجيال فتناساها القوم وشُغلوا بشواغل أُخر ثنتْ بالعقول الى ما هو انفع لها وانسب بمقامها (ستاتي البتية)

كتاب
تاريخ بيروت

لمحمد بن صالح (تابع لما سبق)

وربّما كان مولد زين الدين بن علي في اواخر أيّام والدهِ علي المذكور حتى طابق